

منهج البيضاوي في التعريف بـألفاظ القرآن الكريم: دراسة نقدية

مليكة ناعيم*

تلخيص:

بعد المعجم القرآني في كتب التفسير مجالاً خصباً للدراسة، نظراً لخصوصيات هذا المعجم، وتبادر طرق المفسرين في معالجته. وتهدف هذه الدراسة إلى بيان طريقة البيضاوي في التعريف بـألفاظ القرآن الكريم من خلال نماذج متنقاة بموازاة مع عناصر الدراسة، وبيان أسلوبه المعتمدة في التعريف، وتوضيح موقفه من الدخيل وكيفية تعامله مع الألفاظ الدخيلة، وأثر هذا كله في قراءة كتابه وفهمه، لاسيما بالنسبة للقارئ غير المتخصص.

توطئة:

بعد المعجم أول قسم من أقسام اللغة بحسب ترتيب اللغويين العرب، والشرط الأول من شروط المفسر التي ذكرها المنظرون لعلم التفسير، ونص على أنها المفسرون في مقدمات كتب التفسير¹، ذلك أن لغة القرآن الكريم تمثل أرقى درجة الفصاححة في كلام العرب، وتضمنت من الألفاظ ما يتوقف استنباط الحكم الشرعي وتحديد المعنى السياقي على الدقة في تحديد معناه اللغوي والمعرفة بملابساته اللفظية، كما أنه تضمن ألفاظاً غير عربية في الأصل، ولا يستطيع ميزتها من العربي غير الضابط للغات العرب المحيط بـألفاظها، لذلك فكل من يخوض في التفسير من غير معرفة أصل هذه الألفاظ قد يخطئ في تفسيرها ويتحمل في تأويلها، والخطأ في ضبط اللفظ ينبع

* كلية اللغة العربية مراكش.

¹. يقول الراغب الأصفهاني: "إن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية. ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معانٍ مفردات الألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللّيْن في كونه من أول المعاون في بناء يريد أن يبنيه، وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع، فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعلمه اعتماد الفقهاء والحكماء في أحکامهم وحكمهم، وإلّا مفرغ حذاق الشعراة والبلغاء في نظمهم ونثرهم....". مفردات غريب القرآن، ص.6. يقول أبو حيان: "الوجه الأول: علم اللغة: أسماء وفعلاً وحروفاً، المروفة لقلتها تكلم على معانٍ النحوة فيؤخذ ذلك من كتهم، وأما الأسماء والأفعال فيؤخذ في ذلك من كتب اللغة، وأكثر الموضوعات في علم اللغة كتاب ابن سيدة ... ومن الكتب المطلولة فيه كتاب الأزهري والموعب للتبياني والمحكم لابن سيدة وكتاب الجامع لأبي عبد الله محمد بن

جعفر التميمي الثرواني"، البحر المحيط، 1/6.

عنه الخطأ في تصور بننته الصرفية وتحديد قضياب الإعرابية، مما يؤدي إلى الانزياح عن المعنى الأصل. وقد أدرك البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي (ت. 691 هـ) هذا الشرط، فاعترف في مقدمة تفسيره المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل بصعوبة تحقيقه وتردد في أول إقامته على تفسير كتاب الله بزاد يسير، ثم اعتبر فك ملابسات الألفاظ من صميم أهدافه في تفسيره. فكيف تعامل البيضاوي مع معجم القرآن الكريم؟ ما مصادر تعريفاته؟ وما منهجه؟ تلخص أسئلة ستقاربها محاور هذه الدراسة.

١/ منهجه البيضاوي في التعريف بالفاظ القرآن:

من شروط المقدمة في التراث العربي ذكر المصادر والإقرار بالمنهج المتبّع^١، وقد سار على هذا النهج كثير من المفسرين، فصرحوا بمنهجه في مقدمة كتب التفسير، وطريقهم في تحديد الألفاظ ومصادرهم أيضاً، وبالنظر إلى مقدمة الكتاب موضوع الدراسة نجد أن البيضاوي أوجز فيها إلى حد الإخلاص: لم يفصل الحديث عن المنهج، إلا أنه أشار إشارة يسيرة في الخاتمة بالقول: " وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب المنطوي على فرائد ذوي الألباب، المشتمل على خلاصة أقوال أكابر الأمة في تفسير القرآن وتحقيق معانيه، والكشف عن عويصات ألفاظه ومعجزات بيانه، مع الإيجاز، الخالي عن الإخلال والتلخيص العاري من الإضلال"^٢، فقد اعتبر تحديد الألفاظ الغامضة من ضمن أهداف هذا الكتاب، غير أنه في هذه الإشارة أوجز إلى حد الإخلاص، إذ لم يذكر منهجه ولا سرانتقاء الألفاظ للتعريف بها من دون غيرها من الألفاظ التي تبدو بحاجة للتعريف. لذلك فتحديد منهجه يقتضي تتبع طريقة تعامله مع المادة اللغوية في الكتاب، ولأنه بالمثال يتضح المقال - كما قالت العرب - فإني سأقتصر في تبيان منهجه على نماذج من سورتي الفاتحة والبقرة تمثّل . في نظري . خلاصة لطريقته، وأكتفي بمثال فقط من سورة آل عمران لأهميته في الكشف عن موقفه من الدخيل ومثال من سورة الأعراف عن الترداد.

بالرجوع إلى تفسير البيضاوي المعنون بأنوار التنزيل وأسرار التأويل، ومن خلال النماذج المنتقاة لهذه الدراسة بناء على مقتضيات إنجازها، يتبيّن أن البيضاوي لم يتبع منهجاً محدداً في التعريف

^١. ينظر: عباس ارحيلة: المقدمة في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع، ص.83.

^٢. البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 3/396.

بالفاظ القرآن الكريم، وإنما تختلف طبيعة تعامله مع المواد اللغوية لاعتبارات عدّة، ويمكن تحديد أهم مميزات منهجه في النقاط الآتية:

1/ استحضار اللغات المختلفة للفظ من دون المفاضلة بينها ولا الترجيح: يقول في تعريف كلمة الصراط من قوله تعالى: "اَهِيَّنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ"^١، "السراط من سرت الطعام إذا ابتلعه فكأنه سرط السابقة، ولذلك سمي لقما لأنه يلتقطهم، والصراط من قلب السين صادا ليطابق الطاء في الإطباق، وقد يشم الصاد صوت الزاي ليكون أقرب إلى المبدل منه، وقرأ ابن كثير برواية قبل عنه ورويس عن يعقوب بالأصل، وحمزة بالإشمام، والباقيون بالصاد وهو لغة قريش. والثابت في الإمام، وجمعه سرط ككتب وهو كالطريق في التذكير والتأنيث".^٢.

من خلال هذا التعريف يمكن أن نسجل ملحوظات على منهج البيضاوي:

- اعتماد أصل المادة اللغوية في التحديد بحسب تصوره، وقد تربّى عنه بعض الوهم ولاسيما بالنسبة لغير العالم بعلوم القرآن والقراءات، فقد اعتمد في الآية قراءة الصاد، وفي أول شرح المادة اعتمد كلمة سراط باعتبارها الأصل ويفهم من تحليله للقلب، مع أن قراءة الجمهور بالصاد^٣، مما يجعل القارئ يفترض الخطأ إما في كتابة الآية وإما في التفسير، وكان الأولى هنا إما التصريح بالقراءات أولاً مع التنبيه على الأصل أو القراءة التي يأخذ بها، وإما اعتماد مادة صراط والإشارة إلى تطور اللفظ وبعد التصريح بالراجح في تصوره أو الأصل.

- يظهر البيضاوي من خلال شرح لفظة الصراط بعض الإمكانيات النسقية التي يبيحها النسق العربي للغة العربية، ومنها إبدال الحروف المتقاربة في المخارج والصفات، نحو السين والصاد والزاي، فقد ذكر القراءات المختلفة للسراط: السراط والزراط والصراط، بالمعنى نفسه، وهو مذهب معظم المفسرين^٤، ولم ينسب منها إلى قبيلة إلا قراءة الصاد.

^١. الفاتحة، الآية 5.

^٢- البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 1/ 18.

^٣. قال ابن كثير: "قراءة الجمهور بالصاد وقرئ: السراط وقرئ بالزاي، قال الفراء: وهي لغة بي عندرة وبليقين وبني كلب." تفسير القرآن العظيم، 1/48.

^٤. وهو ما عنونه ابن حي بالقول: باب في الحرفين المتقاربين يستعمل أحدهما مكان صاحبه، الخصائص، 2/88. فقد صنفت الدراسات اللسانية الحديثة هذه الظاهرة ضمن الإمكانيات التي يبيحها النسق العربي ما دامت المعطيات

- يبدو أن البيضاوي يقر بأفضلية لغة قريش على لغة غيرها من القبائل العربية، ذلك أن كل قراءة تمثل قبيلة من قبائل أو عدة قبائل، لكنه اكتفى بنسبة قراءة الصاد إلى لغة قريش من دون غيرها. ومعلوم أن التراث العربي فيه تفضيل لغة قريش¹، مع أن القرآن الكريم ثابت أنه نزل (بلسان عربي مبين)، ولم تنفرد به لهجة قريش، وإنما نزل باللغة العربية الفصحى أو ما يعرف بالعربية المشتركة وقد تغلب عليها لهجة قريش وإن ليست هي.
- الإيجاز في التعريف فقد عرف اللفظ في الأصل اللغوي من دون ذكر معناه في السياق، وإن ورد ضمنياً في تعريف كلمة مستقيم بعده بالقول: "المستقيم، والمراد به طريق الحق".
- أن مصادره البيضاوي المصحح بها في التعريفات هي القراءات القرآنية واللهجات العربية، والشعر، ولم يذكر غيرها من المصادر، لكنه أشار إليها ضمنياً في مقدمته بالقول: "يليق تعاطيه [التفسير] والتصدي للتalking فيه؛ إلا من برع في العلوم الدينية كلها، أصولها وفروعها! وفاق في الصناعات العربية، والفنون الأدبية بأنواعها. ولطالما أحدهن ذاتي بأن أصنف في هذا الفن كتاباً يحتوي على: صَفْوَةً ما بلغني عن عظماء الصحابة، وعلماء التابعين، ومن دونهم من السلف الصالحين. وينطوي على نكت بارعةٍ، ولطائف رائعةٍ، استنبطها أنا ومن قبلِي من أفضَلِ المتأخرِين، وأمثالِ المحققين. ويُعرَبُ عن وجوه القراءات المشهورة المعروفة إلى الأئمَّةِ الثمانيَّةِ المشهورين، والشواذ المرويَّةُ عن القراء المعتبرين. إلا أن قصور بضاعتي؛ يبطئني عن الإقدام، ويعني عن الانتساب في هذا المقام، حتى سنجلي بعد الاستخارَةِ ما صَمَّمْتُ به عزمي على الشروع فيما أردته، والإتيان بما قصدته"².

التي ورد فيها ذاك الإبدال أو الإلحاق تنسجم والخصائص الصوتية للحروف وكذلك قواعد التأليف الأصوات داخل العربية. ينظر: السعفروشني إدريس: مدخل للصواتية التوليدية، دار توبقال، البيضاء، 1967. والسلامي فاطمة: اللغة: المواطن، الاقتصاد، التنمية، ص . ص . 52.45

¹. قال ابن جنبي: "حدثنا أبو بكر محمد بن الحسن عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب قال: "ارتفاعت قريش في الفصاحة عن عنونة تميم، وكشكشة ربعة، وككسكسة هوازن، وتضجع قيس، وعجرافية ضبة، وتلتلة هبراء."

الخصائص، 2/11. وهذه ظواهر لغوية صنفت عند القدماء ضمن اللغات المذمومة لكن الدرس الحديث يعتبرها من مظاهر انفتاح اللغة العربية على غيرها من اللغات ومن الإمكانيات التي يبيحها النسق العربي للغة العربية كما ذكرت في تعليق سابق.

². البيضاوي: أنوار التنزيل، 1/3.

2/ توضيح اللفظ من خلال لفظ يشترك معه في خاصية ما: من الآليات المعتمدة في تعريف الألفاظ لدى البيضاوي، توضيح اللفظ من خلال لفظ آخر يشترك معه في خاصية معينة، ومنه قوله: "مساكن: جمع المسكين وهو الذي أسكنته الخلة، وأصله دائم السكون كالم Skinner دائم السكر"^١، فالعلاقة التي تربط المسكين بالمسكير هي خاصية الدوام، لذلك اعتمد البيضاوي في التوضيح منه أيضا قوله: "تشاور: التشاور والمشاورة والمشورة المشورة استخراج الرأي من ترتيب العسل إذا استخرجه"^٢. فليس بين المشورة والعسل قاسم مشترك، لكنهما يلتقيان في آية "الاستخراج".

ومنه أيضا: "وابن السبيل، المسافر، سمي به ملازمته السبيل كما سمي القاطع ابن الطريق، وقيل الضيف لأن السيف يرفع به"^٣. فالعلاقة بين اللفظين ليس في الدلالة وإنما في سبب التسمية فقط.

إن التعريف بالمثال معتاد في التراث العربي وقد تبنّاه سيبويه (ت. 180 هـ) في تعريف المصطلحات النحوية^٤، لكن الأمر هنا مخالف لأنّه يوضح معنى اللفظ من لفظ بعيد عنه في المعنى والجملة الدلالي وإن شاركه في خاصية ما. وأحياناً يشير إلى النقيض، ومنه قوله: "السفه: خفة وسخافة رأي يقتضيها نقصان العقل، والحلم يقابلها"^٥. فقد وضح معنى السفة من خلال نقيضه وهو الحلم وإن لم يرد في الآية.

^١. المصدر نفسه، 1/ 161. ويلاحظ هنا أنه لم يعرف اللفظ أول ما ذكر في السورة وإنما اكتفى في تفسير قوله تعالى: "وبالوالدين إحساناً وذى القربي واليتامى والمساكين". البقرة الآية، 82. بالقول: "ومسكين مفعيل من السكون كأن الفقر أسكنه". 115/1.

^٢. في تفسير قوله تعالى: "إِنَّ أَرِادًا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاءُرٌ فَلَا جُنَاحٌ عَلَيْهِمَا". البقرة، الآية 231. ينظر البيضاوي: أنوار التنزيل، 1/ 202.

^٣. المصدر نفسه، 1/ 161.

^٤. ومنه قوله: "الاسم: رجل، وفرس، وحائط". كتاب سيبويه، تحقيق محمد عبد السلام هارون، ط. 3، دار الخانجي، القاهرة، 1988، 12/1.

^٥. البيضاوي: أنوار التنزيل، 1/ 49. في تفسير قوله تعالى: "قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ". البقرة، الآية: 12.

3/ ذكر المعاني السياقية المختلفة للفظ من غير ميز ولا ترجيح: ومنه: "وَمَا جَعْلَنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِتَعْلَمَ مِنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقُلُبُ عَلَى عَاقِبَيْهِ"¹ يقول: "من الجعلة أو الردة أو التولية أو التحويلة أو القبلة"²، فهذا من مواضع الإيجاز إلى درجة الإخلال، لأن كل لفظة منها تحتاج إلى توضيح وشرح، لاسيما أنه ذكر ضمنها الجعل والقبلة أيضاً وهما مادة الشرح، و "أو" التي للتخيير تؤكد التباين في المعنى الأولى توضيحة الحدود بين هذه الألفاظ التي قد تبدو للقارئ متراوفة.

— ومنه أيضاً القول بالمعاني المختلفة للفظ من دون ترجيح، ومنه "من خلوت بفلان وإليه إذا انفردت معه، أو من خلاك ذم أي عداك ومضي عنك، ومنه القرون الخالية، أو من خلوت به إذا سخرت منه"³. فقد قدم المعاني المختلفة المحتملة للكلمة داخل السياق من غير ترجيح بينها مع أنها معان متباينة إلى حد التعارض لاسيما بين "انفرد بك" و "مضى عنك".

البقرة، الآية، 142. ض¹

². البيضاوى: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 1 / 146.

³ البيضاوي: أنوار التنزيل، 1/50. تفسير الآية 13 من سورة البقرة "إِذَا حَلَوْا إِلَيْ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ".

الأعراف، الآية: 201.⁴

⁵ الببصاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 3/85. جاء في لسان العرب: "نزع: أغري وأفسد وحمل بعضاً على بعض". مادة نزع. "نسخت الواشية بالإبرة نسغاً: غرذت بها. والنسخ تغريب الإبرة (...) والنسخ مثل النحس". مادة نسخ. فيظهر أنه لم يقابله اتفاقاً.

⁶ ابن حفظ أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق عبد الحليم النجاشي، 2/145-152.

زيادة الحروف الثلاثة بهذه الترتيب "است" تفيد الطلب، يقول: ""هُنَّتْ وَاسْتَبَّاتْ بِمَعْنَى، كَأَجَبْتْ وَاسْتَجَبْتْ"¹.

5/ إيراد الدلالات المختلفة للفظ مع ترجيح: على الرغم من الإيجاز في منهج البيضاوي، عن قصد وبتصريح منه، فإنه أحياناً يتسع في إيراد الدلالات ويستطرد في ذكر المعاني السياقية التي يحتملها اللفظ مع تصريح بالمعنى الذي يرجحه، ومنه في تفسير قوله تعالى: "إِذَا أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ"²، يقول: "يعني التوراة الجامع بين كونه كتاباً منزلة وحجة تفرق بين الحق والباطل، وقيل أراد بالفرقان معجزاته الفارقة بين الحق والمبطل في الدعوى أو بين الكفر والإيمان"³. فقد بدأ البيضاوي بذكر المعنى الذي يرجحه فكان ممكناً الاكتفاء بذلك، لكنه فضل ذكر التأويل المختلفة للفظ من دون مناقشتها ولا التعليق عليها، ومميزها من المعنى الذي يرجحه بناءً القول للمجهول "قيل" الذي يوحى بعدم الاهتمام بالقول، في مقابل "يعني" لمعنى التوراة الذي يرجحه ويفيد الإقرار بالمعنى والقول به.

6/ الفصل بين الألفاظ المتبعة: كثير من الألفاظ شاع القول بتراوتها مع أن بينها فروقاً دقيقة في المعنى، وقد حرص البيضاوي في تفسيره على الميز بينها وإن لم يذكر بعضها في الآية، ومنها الخشوع والخضوع، يقول في تعريف الخشوع من قوله تعالى: "إِلَّا عَلَى الْخَائِشِينَ"⁴، أي المختفين والخشوع الإخبار ومنه الخشعة للمرملة المنظامنة، والخضوع اللين والانتقاد، ولذلك يقال الخشوع بالجواح والخضوع بالقلب⁵. فعلى الرغم من أن الآية لا تتضمن لفظة الخضوع، إلا أنه لما شاع القول بتراوهما، فقد نبه البيضاوي في إشارة لطيفة منه إلى اختلافهما في المعنى، ولعل هذا مما قصد بالقول في مقدمته: "الكشف عن عویصات الفاظه". ومنه ميز التكبر من الاستكبار، في تفسير قوله تعالى: "إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكَبَ"⁶، قال: "والتكبر: أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره. والاستكبار طلب

¹. البيضاوي: أنوار التنزيل، 1/50. تفسير قوله تعالى: "إِنَّمَا تَخْنُونُ مُسْئِلَّيْنَ". البقرة، الآية 13.

². البقرة، الآية 52.

³. البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 1/101.

⁴. البقرة، الآية 44.

⁵. البيضاوي: أنوار التنزيل، 1/98.

⁶. البقرة، الآية 33.

ذلك بالتشبع^١. وهذه تنبهات جيدة من البيضاوي لأنها ترفع للبس وتفنن رأي القائلين بترادف اللفظتين وتنبه على ضرورة مراجعة القول بالترادف.

ومن أمثلته أيضا تعريف السفك من قوله تعالى : "وَسُقْكُ الدِّمَاء" ^٢؛ "السفك والسبك والسفح والشن أنواع من الصب، فالسفك يقال في الدم والدمع، والسبك في الجواهر المذابة، والسفح في الصب من أعلى والشن في الصب من فم القربة ونحوها، وكذلك السن" ^٣ . فهذه المواد تشتراك في أصل المعنى، لكن لكل واحدة خاصية في المعنى تميزها، وهو من شجاعة العربية وعبقريتها، وبهذا يفنن قول القائل ترادفها، لأنم اللبس حرص البيضاوي على ميزها من بعض على الرغم من أن النص لا يتضمن إلا السفك. وهذا يندرج ضمن أهدافه في فك عویصات اللفظ.

١٠- منهج البيضاوي في ترتيب تعريفاته:

بالرجوع إلى خاتمة الكتاب والتي هي في الأصل من عناصر المقدمة، نجد المعجم في الرتبة الثالثة ضمن اهتمام البيضاوي، ويأتي بعد أقوال السلف وتحديد الدلالة السياقية، وهو وصف التزم به في تفسيره؛ إذ غالبا ما يبدأ بذكر الإعراب والدلالة واللطائف البلاغية قبل أن يورد المعنى اللغوي للفظة، مخالفا بذلك جمهور المفسرين الذين ينطلقون من المعنى اللغوي. ومن نماذجه تفسيره لقوله تعالى: "فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمِّهُ" ^٤، يقول: "مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلك شهر رمضان، أو بدل من الصيام على حذف المضاف أي كتب عليكم الصيام صيام شهر رمضان، وقرئ بالنصب على إضمار صوموا، أو على أنه مفعول، وأن تصوموا وفيه ضعف، أو بدل من أيام معدودات، والشهر: من الشهرة، ورمضان: مصدر رمضان إذا احترق، فأضيف إليه الشهر وجعل علما ومنع من الصرف للعلمية والألف والنون، كما منع داية في ابن داية علما للغراب للعلمية والتأنيث، وقوله صلى الله عليه وسلم: "من صام رمضان". فعلى حذف المضاف لأن

^١. البيضاوي: أنوار التنزيل، 88/1.

^٢. البقرة، الآية 29.

^٣. البيضاوي: أنوار التنزيل، 83/1.

^٤. البقرة، الآية 184.

الالتباس، وإنما سموه بذلك إما لارتماصهم فيه من حر الجوع والعطش، أو لارتماص الذنب فيه، أو لوقوعه أيام رمض العر حين ما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة^١.

يبدو أن البيضاوي يحتفي بالنحو أكثر من المعجم مما جعل فيه المعنى مشكلا، فقد بدأ بالإعراب أولاً وثني بالمعجم ثم رجع للإعراب ومن خلاله لإتمام المعنى اللغوي للفظ والتأصيل له، مما نتج عنه الغموض وصعوبة الوصول إلى المقصود، وكان الأولى الفصل بين المستويات والالتزام بترتيب معين. وهذه ملحوظة تلحظ على التراث العربي في مجلمه، أقصد التداخل بين المستويات مما يجعل الفهم عسيراً بالنسبة للطالب المبتدئ، ويقتضي التنبيه على أن هذا مجال رحب للبحث لتيسير قراءة التراث والتشجيع على الرجوع إليه، أقصد إعادة التصنيف والتبويب.

ولم يلتزم البيضاوي بهذا النهج في الكتاب كله، وإنما اعتمد في مواضع وحالاته في أخرى. أحياناً يذكر المعنى المعجمي للفظة ويسميه المعنى الأصل^٢، ويعطف عليه المعنى السياقي^٣، ومنه صلوات من قوله تعالى: "أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ"^٤، يقول: "الصلاوة في الأصل للدعاء، ومن الله تعالى التزكية والمغفرة. وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها"^٥. فقد ماز المعنى اللغوي للكلمة من المعنى السياقي. ولم يشر إلى أصل اللفظة.

^١. البيضاوي: أنوار التنزيل، 1. 167.

^٢. إن تسميته بالمعنى الأصل له ما يدعمه لو التزم به في الكتاب كله، لأنه "هو الأصل من بين أنواع المعاني، لأنه الذي وضع اللفظ له أول الأمر. في أقدم ما نعلم من تاريخ العربية". جبل محمد حسن حسن، المعنى اللغوي: دراسة عربية مؤهلة نظرية وتطبيقية، مكتبة الآداب، القاهرة، 176-177.

^٣. إن الجمع بين المعنى المعجمي والمعنى السياقي يعد من ركائز كل مشروع قراءة أو تفسير وذلك عبر "المراوحة بين المعنى النصي (السياقي) للكلمة ومعناها المعجمي. والتخرج الدلالي الأكثر ملاءمة وانسجاماً هو الذي تدعمه أدلة وشهاد سياقية خارجية". التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربي للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، ط. 1، 2010، ص. 192.

^٤. البقرة، الآية 152.

^٥. البيضاوي: أنوار التنزيل، 1. 152.

وأحياناً يقدم السياق على الأصل يقول عن السبت: "والسبت مصدر قوله سبت المهد إذا عظمت يوم السبت، وأصله القطع أمروا بأن يجردوه للعبادة"^١. وأرى أنه لو بدأ بالمعنى المعجمي كان أكثر دقة ووضوحاً ولا احتاج لتكرار الحديث عن المعنى السياقي بعده.

ومن النماذج التي يظهر فيها الغموض تفسيره لقوله تعالى: " فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْلًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ "^٢ يقول: "عذاباً مقدراً من السماء بسبب فسقهم، والرجز في الأصل ما يعاف عنه، وكذلك الرجس. وقرئ بالضم وهو لغة فيه، والمراد به الطاعون"^٣. ففي القول ثلاثة تعريفات لم يسم منها إلا الأصل تمييزاً له من غيره، الأول يظهر أنه المعنى السياقي، والثاني هو المعنى المعجمي، والثالث هو تقييد للمعنى السياقي، وكان الأولى أن يذكر معه قبل الانتقال للمعنى المعجمي أو البدء بالمعجمي ثم يذكر السياقي في مكان واحد. لتيسير الفهم.

أحياناً يميز بين ثلاثة أنواع من التعريفات، المعنى الأصل ويبدأ به، والمعنى اللغوي، والمعنى الشرعي، بهذا اللفظ قاصداً به المعنى الاصطلاحي لللفظ، ومنه تعريفه للسجود يقول: "والسجود في الأصل تذلل مع تطامن قال الشاعر [وهو عروة بن زيد الطائي]:

ترى الأكم فيها سجداً للحوافر

وقال آخر [قيل هو أعرابي من بني أسد]:

وقلت له اسجد لليلى فاسجدا

يعني البعير إذا طأطاً رأسه. وفي الشعع: وضع العجيبة على قصد العبادة [...] وأما المعنى اللغوي وهو التواضع لآدم تحية له وتعظيمها له، كسجود إخوة يوسف له، أو التذلل والانتقاد بالسعى في تحصيل ما ينوه طبها معاشهم ويتم به كمالهم"^٤.

^١. المصدر نفسه، 1/108. تفسير الآية 64 من سورة البقرة.

^٢. البقرة، الآية: 58.

^٣. البيضاوي: أنوار التنزيل، 1/104.

^٤. المصدر نفسه، 1/87.

يلحظ أنه يقصد بالأصل المعنى المعجمي للكلمة¹، وبالمعنى اللغوي المعنى السياقي داخل الآية، في حين يقصد بالشرعى المعنى الاصطلاحي للسجود. ويلحظ هنا أنه خالف الترتيب المعتمد في نماذج سابقة فبدأ بالمعنى المعجمي وختم بالمعنى السياقي، لكن هذا التعريف واضح، إذ سمي كل تعريف باسم يميزه عن غيره. ويلحظ هنا إشكال في المصطلح لأن القدماء كانوا يطلقون علم اللغة على المعجم أو علم المفردات، لكن البيضاوي خالفهم فأعتمد الأصل بمعنى المعجم واللغة بمعنى الدلالة داخل السياق. وهذا مشكل في تفسير البيضاوي أولاً لأنه لم يحدد مصطلحاته في المقدمة وهذا من نواقص خطبة كتابه، ثم ثانياً لأنه لم يلتزم بالمصطلح الوارد في الكتاب كله، فأحياناً يعتمد مصطلح الأصل للمعنى المعجمي، وأحياناً يكتفي بإيراد المعنى من غير اصطلاح، وأحياناً أخرى يعتمد اللغة، يقول مثلاً في تعريف النسخ: "والنسخ في اللغة: إزالة الصورة عن الشيء وإثباتها في غيره كنسخ الظل للشمس والنسل ومنه التناسخ. ثم استعمل لكل واحد منها كقولك: نسخت الريح الآخر ونسخت الكتاب، ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها أو الحكم المستفاد منها أو بهما جمِيعاً". يتضح من السياق أن المقصود باللغة هنا هو المعجم الذي يسميه في تعريفات أخرى الأصل، وما بعده هو المعنى الاصطلاحي للنسخ.

يتضح مما سبق أن توحيد المصطلح في الكتاب مع تحديده في المدخل ييسر قراءة الكتاب ويعين على فهمه، وهذا من أسباب الغموض في التراث العربي، أقصد التعدد الاصطلاحي وعدم تحديد المصطلحات.

وأما مصادره في هذه التعريفات فلم يصرح منها إلا بالقراءات القرآنية والشعر وبعض كلام العرب، ولم يصرح بأي كتاب اعتمده ولا بأسماء الأعلام الذين أخذ عهم، على الرغم من أن معظم التعريفات مأخوذة من تفسير الرمخشري (ت. 538هـ) الموسوم بـ"تفسير الكشاف عن حقائق غواص التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل".

¹ يسمى بالأصل في الدراسات الحديثة أيضاً، ويعلل جبل محمد حسن التسممية بالقول: "وهو الأصل من بين أنواع المعانى، لأنَّه الذى وضع اللفظ له أولَ الأمر، فى أقدم ما نعرف من تاريخ العربية". المعنى اللغوى: ص. 195. وأما المقصود به فهو "المعنى الذى تسجله المعاجم للمفردة اللغوية راعى فيها حروفها بترتيبها وصيغتها...". المصدر نفسه،

.177.176

² : البيضاوى: أنوار التنزيل، ج 1

ومنما يلحظ على منهجه أيضاً أنه أحياناً يحمل اللفظ المهم الذي يحتاج لبيان ويشرح اللفظ الواضح، فلم يعرف بالقصاص لا لغة ولا اصطلاحاً، كما أنه لم يعرف القرآن ولا الصوم والزكاة في الاصطلاح، ولم يميز كسب من اكتسب، عندما وردت أول مرة، في حين عرف القسوة والمستقيم وغيرهما من الألفاظ التي تفهم دلالاتها من السياق.

3/ موقف البيضاوي من الدخيل:

شكل الدخيل في القرآن من لغات غير العربية موضوعة خلاف بين المفسرين، فانقسموا إلى مذاهب ثلاثة، فريق يقر بالدخيل ومنهم ابن جنی 392هـ، وفريق ينكره ومنهم ابن جرير الطبّري (ت. 310هـ)، وثالث يجمع بين الرأيين ومنهم أبو عبيد القاسم بن سلام (ت. 224هـ). ويدو من خلال نماذج من تفسير أنوار التنزيل أن البيضاوي لم يخض في مناقشة هذا الموضوع، لكن يبدو من خلال تعامله مع المواد موضوع الخلاف مائلاً للرأي الثالث، ويظهر منها أنه غير ذي معرفة باللغات غير العربية، لذلك فإنه في معظم الألفاظ غير العربية يكتفي بنقل القول بأعجميتها عن غيره، ولا يشير إلى معنى الكلمة في اللغة الأصل كما أنه لا يجزم برأيه.

من أمثلته اسم الجاللة "الله"، لقد اختلف العلماء في أصل لفظة "الله" يقول الشريف الجرجاني (ت. 816هـ): "اعلم أن العقلاة كما تاهوا في ذات الله وصفاته...تحيروا في لفظ الله...فاختلفوا أسريرياني هو أم عربي، اسم أو صفة، مشتق ومم اشتقاقة وما أصله، أو غير مشتق، علم أو غير علم"¹، وقد أورد البيضاوي أيضاً بعض الأقوال بهذا الشأن، فقال: "(والله) أصله إله، فحذفت الهمزة وعوض عنها الألف واللام ولذلك قيل: يا الله . بالقطع . إلا أنه مختص بالمعبد. والإله في الأصل لكل معبد، ثم غلب على المعبد بالحق. واشتقاقه من الله إلهة وألوهة وألوهية بمعنى عبد ومنه تأله واستأله، وقيل من الله إذا تحير لأن العقول تحير في معرفته [...] وقيل علم ذاته المخصوصة لأنه يوصف ولا يوصف به [...] والأظهر أنه وصف في أصله لكنه لما غلب عليه بحيث لا يستعمل في غيره وصار له كالعلم مثل: الثريا والضعف أجري مجرأه في إجراء الأوصاف عليه وامتناع الوصف به [...] وقيل أصله لها بالسريانية فعرب بحذف الألف الأخيرة وإدخال اللام

¹. الحاشية على كتاب الكشاف، ص.36.

عليه^١. لقد ذكر البيضاوي الأقوال المختلفة في أصل اسم الجلالة "الله" ومعانيه، ويبدو أنه يميل إلى القول بأن أصله إله، ومن ضمن الآراء التي ذكرها القول بأنه سرياني الأصل، ولم يعقب عليه مما يفيد أنه لا يعارض وجود غير العربي في القرآن، غير أنه يبدو غير ذي معرفة باللغة السريانية والمشترك السامي، فالكلمة من المشترك السامي، ولا تختلف عن الأصل الذي ارتضاه وهو إله، ولا يتعلّق الأمر بلفظ "إليها" محنوف الحرف الأخير، وإنما هنا يتعلق باختلاف أداة التعريف، فهي في اللغة الآرامية بشكل عام ألف في آخر الكلمة فالألف في أنها هي أداة تعريف، وفي العربية في أولها. لذلك نجد أنها في السريانية بمعنى الله في العربية.

ومن الأمثلة أيضا قوله في شرح معنى: "الذين هادوا"، "وهبود إما عربي من هاد إذا تاب، سموا بذلك لما تابوا من عبادة العجل، وإنما معرب بهبودا وكأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام^٢. ونلاحظ أن البيضاوي يستعمل لفظ معرب ولا يعتمد الدخيل على الرغم من أن اللفظ إذا ثبت أنه أصله بهبودا فإنه دخيل ولم يعرب؛ بحسب مفهوم المعرب والدخيل^٣. كما أنه لم يجزم برأي وإنما بناء على الظن باعتماد إما وإما.

ومن الأمثلة التي تظهر عدم معرفة البيضاوي باللغات غير العربية الواردة لفاظها بالقرآن الكريم، لفظي التوراة والإنجيل، يقول عنهما: "واشتقاقيما من الورى والنجل، وزنهما بتفعلة وإفعيل تعسف لأنهما أعمجيان، ويؤيد ذلك أنه قرئ الإنجيل بفتح الباءة وهو ليس من أبنية العربية"^٤. ففي هذا القول مفارقة بين القول إن اللفظ أعمجي لا يمكن وزنه بالأوزان العربية، وبين الإقرار بأصل اشتقاقه في العربية وهو الورى والنجل، فكيف يكون اللفظ أعمجيا دخيلا إلى العربية من غيرها ثم نفترض له أصلًا اشتقاقيا في اللغة العربية^٥. ثم إن البيضاوي حكم بأعمجية

^١. البيضاوي: أنوار التنزيل، 11.10/1.

^٢. البيضاوي: أنوار التنزيل، 1/127.

³. فالمشهور أن الدخيل يقصد به "اللفظ الأجنبي الذي دخل العربية دون تغيير". السيوطى: المزهر، 1/268. والم العرب كل كلمة أعمجية دخلت إلى العربية خاضعة لمقاييس العربية وأبنيتها وحروفها". خسارة ممدوح محمد، المعرب والدخيل في المجالات المتخصصة، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، مج 5/4، 2000، ص ص .920.921.

⁴. البيضاوي: أنوار التنزيل، 1/243.

⁵. هذا يخالف تعريفه لـ"طالوت" إذ جعل أعمجية اللفظ حجة لرفض القول باشتقاقه من الطول، بقول: "طالوت علم عربي كداد وجعله فعلوتا من الطول تعسف يدفعه منع صرفه". المصدر نفسه، 1/210.

اللفظتين بناء على مخالفة وزنها لأوزان العربية فقط ولم يشر إلى اللغة الأصل ولا إلى المعنى الأصل، مما يؤكد أنه استفاد هذا الحكم من إدراكه لقواعد العربية وإحاطته بأوزانها وليس من معرفة الأصول اللغوية وهنا يتتأكد ما أشارت إليه البيضاوي في مقدمته من أن من لا يحط بلغات العرب لا يحق له الإقدام على تفسير كتاب الله. لكن معرفة المفسر باللغات غير العربية سيزيد من دقته في التفسير وشرح الكلمات غير العربية واتخاذ الموقف المناسب في دراسة بنية الصرفية.

يبدو إذن؛ من الأمثلة السابقة أن البيضاوي لا ينفي وجود ألفاظ غير عربية الأصل في القرآن الكريم، لكن تعامله مع المواد يختلف فهناك ألفاظ يبدو متزددا فيها فلم يجزم بأعجميتها وإنما يورد الاحتمالين معا من غير ترجيح، وألفاظ يكتفى فيها بنقل رأيه غيره، وأخرى يعتمد على التصريف في إثبات عدم أصلتها في العربية. ولم يعتمد مصطلحا واحدا، وإنما عبر بالعرب وبالأعجمي من دون تحديد المقصود بهما.

خاتمة:

بعد المعجم أساساً آلية من آليات التفسير؛ إذ لا يمكن فهم المعنى من دون معرفة بمعاني الألفاظ وملابساتها اللغوية والمعنوية.

اهتم البيضاوي بالمعجم وإن اختلفت طرق تعامله باختلاف المواد اللغوية، وهذا يظهر أهمية تفسيره إذ يتعامل مع كل ظاهرة لغوية بحسب خصوصياتها وما يتقتضيه بيانها.

للببيضاوي من الدليل في القرآن موقف إيجابي، إذ لا ينكل عن التصرير بأعجمية اللفظ، لكنه مثل معظم المفسرين يقف عند حدود القول بالأصل غير العربي من دون البحث في معناه في لغته الأصل ولا سر توظيف القرآن له ولا مناسبته.

يجد القارئ بعض الصعوبة في تتبع المعجم القرآني في تفسير البيضاوي وذلك راجع أساساً إلى عدم ضبط المفسر للاصطلاحات، مما أدى إلى تعددتها وغموضها أحياناً.

إن المعجم مظہر من مظاهر الإعجاز في كتاب الله؛ إذ لكل لفظة معنى يميزها و يجعلها المناسبة للسياق من دون غيرها مما يبدو قريباً لها في المعنى، ومنه يتضح ألا ترافق في مفردات القرآن الكريم. كما أن معنى اللفظة الواحدة يختلف باختلاف السياق.

إن المعجم القرآني في كتب التفسير يحتاج إلى دراسات تكشف طرق تعامل المفسرين معه وتظهر التصور النظري المتحكم في منهجهم.

المصادر والمراجع:

- بازى، محمد. **التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات.** ط.1. د.م: الدار العربي للعلوم ناشرون ومتضورات الاختلاف، 2010.
- البيضاوى، القاضى ناصر الدين. **تفسير البيضاوى المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل.** حققه وعلق عليه وأخرج أحاديثه وضبط نصه: محمد حسن حلاق و محمد أحمد الأطرش. ط.1. دمشق- بيروت: دار الرشيد، بيروت- لبنان: مؤسسة الإيمان، 2000.
- جبال، محمد حسن. **المعنى اللغوى: دراسة عربية مؤصلة نظرياً وتطبيقياً.** القاهرة: مكتبة الآداب، د.ت.
- ابن جنى، أبو الفتح عثمان. **الخصائص.** تحقيق: محمد علي النجار. لبنان: دار الكتاب العربي، د.ت.
- أبو حيان الغرناطي، (محمد بن يوسف). **تفسير البحر المحيط.** الرياض: مكتبة النصر الحديثة، د.ت.
- حسارة، ممدوح محمد. "المغرب والدخل في المجالات المتخصصة." مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، مج 5 / ج 4، 2000: ص. 920-921.
- الراغب الأصفهانى، (أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف). **المفردات في غريب القرآن المؤلف.** تحقيق: صفوان عدنان الداودي. ط.1. دمشق- بيروت: دار القلم، الدار الشامية، 1412هـ.
- ارحيلة (عباس). **مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع.** ط.1. مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، 1422هـ/2002م.
- السعروشى، إدريس. **مدخل للصواتة التوليدية.** البيضاء: دار توبقال، 1967.
- السلامي، فاطمة. **اللغة: المواطنة، الاقتصاد، التنمية، ط 1،** المطبعة الوطنية، مراكش، 2015.
- السيوطى. **المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ضبطه وشرحه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه** محمد أحمد جاد المولى واخرون، بيروت، لبنان، دار الجيل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
- سيبوية، أبو بشر عمرو بن عثمان. **كتاب سيبويه، تحقيق محمد عبد السلام هارون، ط.3،** دار الخانجي، القاهرة، 1988.
- الشريف الجرجاني. **الحاشية على كتاب الكشاف.** د.م: مكتبة البابي الحلبي، 1966.
- ابن كثير، إسماعيل. **تفسير القرآن العظيم.** ط.2. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1970.